أهل الفتوة والفتيان
في المجتمع الإسلامي

الطبعة الأولى

١٩٩٨

جميع الحقوق محفوظة
المركز العربي للأبحاث والتوثيق

بيروت ـ شارع مار الياس ـ تجاه ثكنة الحلو ـ بناية صالح
هاتف: ٣٠٥١٥٨ ص.ب.: ١٤/٥٠٦٨

أكاديمية العلوم القومية في جمهورية أرمينيا
معهد الاستشراق

المستشرق الدكتور
ألكساندر خاتشاتريان

أهل الفتوّة والفتيان في المجتمع الإسلامي

تقديم:
الدكتور صالح زهر الدين

تنويه وشكر

بكل تقدير واحترام، أرفع أسمى عبارات الشكر والتنويه للجنة المركزية لحزب الهنشاك الاشتراكي الديموقراطي، وللسيد ملكون مهران سفريان ـ مختار منطقة المدوّر في بيروت ـ لمساهمتهما في طباعة هذا الكتاب، وتشجيع الدراسات والأبحاث التي تخدم الإنسانية جمعاء، من خلال العلم والمعرفة.

ـ المؤلِّف ـ

تقديم

بقلم:
الدكتور صالح زهر الدين

ليس من السهل أن يبادر باحث أو مؤرِّخ إلى الغوص في موضوع «خارج عن المألوف» البيئي أو الطبيعي أو الطائفي أو الديني أو ما شابه؛ وبمعنى أدقّ، خارج عن نطاق بشريّته الجغرافية وجغرافيته البشرية التي وُجد فيها، مقتحماً الميدان الذي لم يُقتحم من قبل، بغية تحقيق «فتحٍ معرفيٍّ» لم يسبقه إلى مثيله أحد.

هكذا كان حال المستشرق الدكتور ألكساندر خاتشاتريان، أستاذ الدراسات الشرقية في معهد الاستشراق في أكاديمية العلوم القومية في أرمينيا، وفي جامعة يريڤان الحكومية؛ والباحث الأكاديمي المتخصِّص في تاريخ البلدان العربية في العصر الوسيط، كما في النقوش والزخرفة العربية ـ الإسلامية.

هذا، ويعتبر البحث الجديد الذي عالجه الدكتور ألكساندر خاتشاتريان بعنوان «أهل الفتوّة والفتيان في المجتمع الإسلامي»، من الأبحاث الجديرة بالاهتمام والدراسة... إنه بحث شيِّق، ذو طابع معرفي، يحمل من الجدّة بقدر ما يحمل من العلم والموضوعية.. زاخر بالمعلومات التي يعتبرها أيّ باحث عنها، بمثابة الكنز الذي لا يقدَّر بثمن.

وإذا كان البعض يعتبر أن أهل الفتوّة والفتيان كانوا «مغامرين»، إلاَّ أن البحث في مغامرة المغامرين، هو بحدِّ ذاته مغامرة... والمغامرة بطبيعتها، تكمن فيها المخاطرة. فكيف الحال إذا كانت هذه المخاطرة من طراز «حركة الفتوّة والفتيان» التي عرفها المجتمع الإسلامي، واشتهرت في بعض عهوده إلى الحدّ الذي لم تصل إليه أيّة حركة أخرى بهذه الفعالية، وهذه القوّة، وهذا النفوذ والتسلُّط... أليس في دراستها بعمق وعلمية، ما يستحق الاهتمام؟ باعتقادنا نعم!!

والواقع، أنه كما تحصل الهزَّات في الأرض، فكذلك المغامرون هم بمثابة «الهزَّات» في التاريخ... تارة يهزُّون الكون، وتارة لا يكونون أكثر من عاصفة في فنجان ـ كما يقول د. شاكر مصطفى ـ. لكنَّهم في النهاية يبقون في إطار «المغامرين»... لأن المغامرة بطبيعتها هي «أداء دور» والقيام به؛ وقيام المغامرين بهذا الدور لا يخرج عن إطار المغامرة، ولو كان البعض منهم كالشهب المحترقة، يتألَّقون لحظات ثم ينطفئون في

الفضاء العميق... ولكن، رغم ذلك، يبقى لكل مغامرة ظروفها وأسبابها وأهميتها ونتائجها ودروسها التي تميِّزها عن الأخرى، باعتبار أن المغامرات ليست كلها واحدة في التاريخ، ولا يمكن أن تكون...

إنها مخاطرة في الوقت نفسه، لأن المخاطرة لم تخرج عن كونها واقعاً مجتمعياً إنسانياً... ولو لم تكن كذلك، لما وجد القرآن الكريم حاجة للتحذير منها بالقول: ﴿ولا تلقوا بأيديكم في التهلكة﴾!! أليس ركوب المخاطر عريق الجذور في الإنسان، وفي التاريخ أيضاً؟ وإذا كان بعض الناس يوضع على طريق المغامرة بالرغم عنه، فبعضهم لا يعيش بدونها... إذ أن المغامرة تعلِّم الإنسان الكثير وما يزال يتعلَّم... أليست «حركة الفتوّة والفتيان في المجتمع الإسلامي» دليلاً حيّاً على ذلك؟ ألَمْ يكن بعض قادة الفتوّة والفتيان من هذا الطراز «المغامر والمخاطر»؟ ألَمْ يكن «قسَّام التراب» سيِّد دمشق الذي لقَّب نفسه بـ «ملك الرجال» النموذج الأكثر وضوحاً لهذه المسألة، باعتباره من طينة «فقراء الفقراء» وشرب كأس الحرمان حتى الثمالة منذ طفولته حتى ريعان شبابه؟

وبما أن الكثيرين جداً من الناس، وكذلك من المؤرِّخين والباحثين، يجهلون ـ حتى ـ اسم «قسَّام التراب»، فيجدر بنا تعريفهم به، لتتوضَّح الصورة.

إنه اسم موغل في القِدَم (كما يقول د. شاكر مصطفى في كتابه: «المنسيُّون في التاريخ»). مضى عليه أكثر من ألف سنة حتى الآن، ومثلها أضعافها من النسيان.

في تلك الأيام، كانت دمشق تابعة للخليفة العباسي في بغداد، ولكن الخلافة الفاطمية في القاهرة أخذتها منها سنة ٣٥٨ هـ. ولكن... لا دمشق ولا سائر مدن الشام كانت هادئة الحال، أو آمنة الأسوار، أو مطمئنة إلى الغد، لا تحت الحكم العبَّاسي ولا تحت الحكم الفاطمي... كانت كلها متروكة لمصائرها... فتحوَّل أهل المدن جنوداً، نبتت لهم أظافر وأنياب، لا للوقوف على الأسوار فقط، ولكن لضبط الأسواق، وأمن السابلة، ومعونة التجار، وحرمة الأخلاق...

ورأى تاريخ المنطقة ظاهرة عجباً: رأى ظهور ما نسمِّيه اليوم بتنظيمات الفتوّة. هم سمُّوها: الأحداث أي الشباب. قامت منظمات الأحداث في القدس. في عسقلان. في دمشق. في حلب. في طبرية. في الموصل. في المعرّة. في حمص. في عكا... في كل مكان. الفراغ السياسي، المحن الساحقة، الفواجع العسكرية أنبتت تلك المنظمات من قلب الشعب، وسلَّحتها بأنواع الأسلحة. بل وفرضت لها الضرائب والأرزاق على الأسواق، على الجماعات، وعلى الموسرين...

وإذا كان أفراد هذه المنظمات متطوعين من الطبقات المعدمة، فلم يكن غريباً أن يكون زعماؤهم والقوّاد من تلك الطبقات!..

على هذا الشكل برز في دمشق اعتباراً من سنة ٣٥٨ هـ. عدد من الزعامات الشعبية، الغريبة كل الغربة عن الجو السياسي السائد. ظهر أمثال ابن عصودا، وابن المارود، والدهيقين، وأقواهم قسّام التراب. أصله فلاّح عربي من إحدى قرى دمشق وتدعى «تلفيتا». وحين قدم المدينة عمل في جمع القمامة، وفي بيع التراب. تطوّع مع الأحداث... وبسرعة صار من زعمائهم. ثم صار قائدهم سنة ٣٦٧ هـ. وتسلّم البلد!.. فلمّا أرسل الخليفة الفاطمي الولاة إلى دمشق، واحداً بعد الآخر، لم يستطيعوا العمل معه شيئاً. سبع سنوات ظلّ حاكماً بأمره. وجاء خلال ذلك ثلاثة عشر والياً. فبعض طرد. وبعض خنع. وبعض قتل. وقسّام التراب هو الآمر الناهي... جيشه من الأحداث كان من فتيان المدينة والغوطة. وقد جعل له الأرزاق. ونظّم الجباية في الأسواق، والخفارات في الغوطة كما يحب. وفي الأخبار أنه «صنع لنفسه ولأصحابه أعلاماً»، وطوارق عليها صورة القحف (أو المجرفة) وهي أداة عمله الأول. جعلها شعاراً له.. على السلاح والأعلام.. ولم يتخذ لقب الأمير أو الوالي أو الوزير، ولم تعجبه ألقاب الدولة المعروفة، فاتخذ اللقب المبتكر الذي لم يتخذه قبله ـ ولا بعده ـ أحد، لقب «ملك الرجال». وقد امتدحه الشعراء بقصائدهم، وكان منهم أشهر شعراء الشام بعد المتنبّي، في تلك الفترة، وهو عبد المحسن الصوري، فامتدحه أيضاً بقصيدة ميمية!...

غلطة «قسّام التراب» إنما كانت ناجمة من موقعه الجغرافي بين الخلافتين المتناحرتين العباسية والفاطمية. حصاة بين حجري رحى. وأراد أن يلعب على الحبل بين الطرفين لعبة الموت... وإذا كان يتقن البهلوانية المحلية فيبدو أنه لم يكن يتقن البهلوانية الدولية... وكانت الخلافة الفاطمية هي الأقوى جنداً وذهباً.. فانتهزت الفرصة بعد احتمال سبع سنوات، وحاصرته الحصار الاقتصادي وظهرت الشدّة في الشام...

انقطعت الميرة عن دمشق، وغلت الأسعار، وجاع الناس أبشع المجاعة. فأرسلت على دمشق جيشاً لم ترسل من قبل أقوى منه. وضرب الحصار العسكري عند الأسوار... وأحرقت أرباض المدينة وضواحيها... ولم يستطع جيش قسّام أن يقف للقتال أكثر من ثمانية أيام... تخلّى عنه أولاً المتموّلون والطبقات الموسرة. ثم انفضّ عنه أنصاره بعد القتال الدامي...

وحين تألّف وفد من وجوه البلد لطلب الصلح، وقبل القائد الفاطمي الصلح، فتّش

الناس عن قسَّام فلم يجدوا له أثراً. . .

اختفى «ملك الرجال»، ونهبت داره وأمواله. ونودي في البلد بجائزة خمسين ألف درهم لمن يدلّ عليه، وعشرين ألف درهم لمن يدلّ على أولاده. . . ولكن أحداً لم يفز بالجائزتين. . .

وبعد أسبوع من استسلام المدينة، دخل على القائد الفاطمي رجل قال إنه رسول قسَّام، يطلب الأمان له من الموت. فلمَّا وعده القائد بالأمان قال: أنا قسَّام.

وسيق بالقيود إلى مصر. . . ويُقال إنه عفا عنه هناك. ويُقال إنه مات. . . ويُقال ويُقال. . . ولكن منذ عضَّته القيود انتهى. دخل حرم النسيان. ولم يعد يعرف عنه أحد أي خبر. . . حتى قصَّته التي تحوَّلت في الذاكرة الشعبية أسطورة مثيرة، ما لبثت أن محتها الأيام. . .

إن حركة قسَّام التراب هذه تمثِّل نموذجاً صارخاً عن حركة الفتوّة والفتيان في المجتمع الإسلامي حيث تعدَّدت الآراء إزاءها، فمنهم من أنصفها، ومنهم من رماها بمختلف التهم، وألصق بها ما لم يلصق بعصابات قطّاع الطرق واللصوص الذين لا يقيمون وزناً للقيم، ولا يحترمون المبادىء والأخلاق. ولعلَّ بعض المستشرقين الغربيين (ومن بينهم اليهود طبعاً) حكم عليها من منطلق عدائي للإسلام وللمسلمين، لذلك كان هذا الحكم بعيداً عن الحقيقة وبعيداً عن العلم. كما عاداها البعض الآخر، وناصرها آخرون، إلاَّ أن قليلين جداً هم الذين عالجوا هذه الظاهرة علمياً وأكاديمياً وموضوعياً. وليس الدكتور ألكساندر خاتشاتريان إلاَّ أحد هؤلاء القلَّة. . بل أحد الذين احتلَّ بينهم مرتبة تصل إلى حدّ «الامتياز» في هذا الموضوع، انطلاقاً من العوامل التالية:

أولاً: إنه أحد المستشرقين الأرمن القلائل الذين تطرَّقوا إلى هذا الموضوع، لكنه يبقى سبَّاقاً بينهم في معالجته باللغة العربية.

ثانياً: إنه أحد المستشرقين الأوائل في العالم الذي اعتمد في مكتبة البحث على مصادر ومراجع أرمنية وإنكليزية وفرنسية وعربية وفارسية وألمانية وروسية. . .

ثالثاً: إنه باحث غير عربي وغير إسلامي، تفرَّد ـ عربياً وإسلامياً ـ باقتحام ميدان لم يسبقه إليه ـ بهذه الاستقلالية والمرجعية الأكاديمية الدقيقة ـ أي باحث عربي أو إسلامي من قبل.

رابعاً: إن أهمية هذا البحث تنطلق من كونه إسلاميّ الجوهر والمضمون والمادة، شمل

امبراطوريات وعهود خلافة متعدِّدة، قام به مستشرق وأستاذ أكاديمي في معهد وجامعة لا تربطهما بالعرب والمسلمين صلة نسب أو قومية أو رحم، بل صداقة تاريخية، وعلاقة إنسانية بين العرب والأرمن، تجلَّت إثر المجازر الإبادية التي ارتكبها قادة «جمعية الاتحاد والترقِّي» (الدونمية الماسونية اليهودية) ضد الأرمن، ذهب ضحيتها أكثر من مليون ونصف مليون أرمني بدءاً من سنة ١٩١٥.

خامساً: إن معالجة هذا البحث وطباعته باللغة العربية، يمثِّل تكريساً للصداقة التاريخية بين العرب والأرمن، ويساهم مساهمة كبرى في تعميق أواصر الصداقة المستقبلية وتمتين روابطها.

سادساً: إننا لا ندَّعي أن الدكتور خاتشاتريان قد أحاط بالموضوع من جميع جوانبه، أو أنه أوفاه حقه بالكامل، لكنه وضع مدماكاً أساسياً متيناً في هذا البناء العلمي المعرفي، ممَّا يشجِّع الباحثين العرب على ضرورة استكماله، والاستفاضة في بعض جوانبه، وزواياه، ونقاطه الأخرى، التي يراها البعض أنها لم تعط حقها من البحث والدراسة، وتستلزم بالتالي التعمُّق فيها، والشمولية اللازمة، خدمة للعلم وتعميماً للفائدة.

والجدير بالذكر، أن هذا البحث الذي هو بين أيدينا اليوم، ليس البحث الأول في الموضوع العربي والإسلامي الذي عالجه الدكتور ألكساندر خاتشاتريان ـ ولن يكون الأخير ـ حيث سبقه موضوع أطروحته للدكتوراه الذي طبع باللغة الروسية، وتُرجم إلى اللغة العربية أيضاً، طُبع ونُشر في دمشق بعنوان «ديوان النقوش العربية في أرمينيا» (الجزء الأول)، فضلاً عن غيره من الدراسات والأبحاث التي تناولت جوانب معيَّنة من حياة العرب والمسلمين، وشارك في ندوات ومحاضرات ومؤتمرات عدة في الأردن ولبنان وسوريا وإيران وغيرها، مساهماً في إنارة زوايا عديدة من هذا التاريخ الزاخر بالوقائع والأحداث والمآثر.

وإذا كان ضرورياً أن نسلِّط الضوء على «حركة الفتوّة والفتيان في المجتمع الإسلامي»، فإننا لن نجد ضوءاً أكثر نقاءً وسطوعاً من الضوء الذي استخدمه الدكتور ألكساندر خاتشاتريان لإنارة الطريق أمام القارىء والمثقف والباحث الأكاديمي والمؤرِّخ والمتخصِّص، ولكل راغب في المعرفة وتعميقها لديه، وذلك في موضوع صرف له من نور عينيه وجهده ووقته وصحته، ما لم نستطع نحن صرفه في هذا المجال، أو بالأحرى، ما نعجز عن صرفه في جانب من جوانبه الكثيرة والمتشعبة...

لذلك، آثرنا أن نترك لكل راغب في ولوج هذا الباب، حريَّة الدخول إليه، بالطريقة التي يراها مناسبة، وفي الوقت المناسب أيضاً، حتى لا نلزمه بزاوية محدَّدة، أو بطريق أو اتجاه، يراه صعباً إجباره على مسلكه والتطلُّع إليه؛ ذلك لقناعتنا أن «الكنز العلمي» و«بنك المعارف والمعلومات» يقع في منطقة، يستحيل الوصول إليها عبر طريق واحد، بل عبر كثير من المسالك والطرق والمفارق، فضلاً عن وفرة الحفر والعوائق والأشواك التي تعترضها... إلاَّ أنها في النتيجة تبقى هدفاً مقصوداً ومنشوداً، لكل ذي إرادة ورغبة مصمّمة على تذليل كل الصعوبات، للوصول إلى الهدف والمبتغى...

وخلاصة القول، أن موضوع «حركة الفتوّة والفتيان في المجتمع الإسلامي» هو بمثابة «الكنز» الذي رصده الدكتور ألكساندر خاتشاتريان لأبناء مجتمعنا العربي والإسلامي، لذلك فإنه يستحق كل تقدير وعناء وجهد واهتمام لاقتنائه، والاستفادة منه كرصيد ورأسمال قابل «للفائدة» (العلمية والثقافية والإنسانية)، بعيداً عن قاعدة «الربا» اليهودية وأسلوبها...

فلنستفد منه ولْنُفِدْ، علَّنا نستطيع أن نعطي هذا الباحث الأكاديمي، والمستشرق الموضوعي، بعضاً من حقِّه علينا، أو أن نفيه جزءاً من هذا الحق الشرعي والمكتسب... خصوصاً أننا ننتمي إلى شعب أصيل في وفائه، ووفيّ في أصالته وعريق...

و... اللَّهمَّ أشهد أنني بلَّغت...

تصدير

في أوائل الثمانينات بدأتُ بدراسة الحركات الاجتماعية في الإسلام وخاصة نشاط أهل الفتوّة أو الفتيان الذين لعبوا دوراً هاماً في المجتمع الإسلامي وله تاريخ طويل ليس من السهل سرده. وقد حفزني إلى دراسة هذا الموضوع مصطلح «أخي» الذي اصطدمت به خلال قراءة وشرح «شاهد قبر» بثلاث لغات (العربية والفارسية والأرمنية) بتاريخ ٧٥٢ هـ/ ١٣٥١ م. في بلدة بلجيس (منطقة فايوتس دزور في جمهورية أرمينيا). وبدا لي من أول وهلة أن المصطلح «أخي» ذو صلة بالكلمة العربية «أخ» (في صيغة المتكلِّم)، ولكن بعد التدقيق في نص «شاهد القبر» ومحاولة تفسير معنى المصطلح الذي كان يسبق اسم صاحب القبر «توكل» اتضح بأن المصطلح «أخي» ليس له علاقة بالكلمة العربية «أخ» وأن هذا التطابق وقع بطريق الصدفة. وتبيَّن بأن كلمة «أخي» تنحدر من أصل «أقي» الموجودة في اللغات التركية القديمة (الأويغورية والتركية الوسطى والتركية الرومية) وتعني: «أيها الجواد، أيها النبيل، أيها البطل» (لقب في صيغة الخطاب). وقد انتقلت الكلمة من المعنى العام إلى المعنى الخاص لتدل على «صاحب الفتوّة» وانتماء حامل اللقب إلى هيئة الفتوّة = «الأخي». وقد انتشرت جماعات الأخية في القرن الثالث عشر والرابع عشر في جميع أرجاء الشرق الأوسط وخاصة في الأناضول والقوقاس والمنطقة الشمالية ـ الغربية من إيران[1].

وهكذا استلفت موضوع «الأخي» اهتمامي وبدأتُ بدراسة نشأتهم ونشاطهم الاجتماعي المشهود والذي ذكرنا بنشاط العيارين في بغداد و«الأحداث» في الشام. ولا بدّ من الإشارة بأن موضوع «الأخي» وهيئات الفتوّة وتنظيمات الفتيان كان قد اجتذب اهتمام الباحثين الأوروبيين منذ زمن بعيد، وكذلك الباحثين العرب أيضاً، ولكن نظريات ومواقف علماء الاجتماع العرب والأوروبيين في هذا الموضوع يختلف تماماً وسوف نتطرَّق إلى ذلك لاحقاً.

وأمام هذه الحال جرأنا على النهوض بهذا العبء الكبير انطلاقاً من أهمية الموضوع الاجتماعية والعلمية والذي يفتقر إلى دراسة شاملة تتناول بحث وتحليل معطيات المصادر

---

(١) للمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر: ف. تشينر «أخي» ـ دائرة المعارف الإسلامية، المجلَّد الثاني، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٤٥٥ ـ ٤٦٠.

وروايات المؤرِّخين وأصحاب المصنفات التاريخية والتي غالباً ما كانت تشوِّه نشاط أهل الفتوّة من الطبقات السفلى انطلاقاً من مواقفهم الطبقية ورؤيتهم للمسائل الدنيوية، واستهدفنا إبراز الدور الذي لعبه أهل الفتوّة في الحركات الاجتماعية في الإسلام، والخطوط الكبرى للبقعة التي انبسطت فيها حركتهم ونشاطهم ومظاهر ايديولوجيتهم، والالتباسات التي تعرَّضت لها قيم الفتوّة والعلاقات التي قامت بين الفتيان والفئات الاجتماعية الأخرى، والأوجه المختلفة التي اكتسبتها الفتوّة: الأرستقراطية والشعبية والصوفية.

ونحن لا نزعم أننا تغلَّبنا على كل المشاكل التي واجهتنا وغطينا جوانب مختلفة من موضوع أهل الفتوّة، بل حاولنا استقصاء جميع الأخبار والروايات التاريخية في المصادر العربية والفارسية والتركية والأرمنية والجورجية عن هيئات الفتيان وأهل الفتوّة وتحليلها، وإلقاء الضوء على حركة الفتيان وتصوراتهم ونظرياتهم عن العدالة الاجتماعية والمساواة والواجب الأخلاقي والثراء والوفاء بالعهد والكمال ومميزات سلوكهم الاجتماعي والمبادىء الإنسانية العامة، التي تمسَّك بها الفتيان في نشاطهم. والمسألة الرئيسية التي رغبنا في فحصها يمكن أن تطرح كما يلي: ماذا فعل أهل الفتوّة في ظروف البلبلة السياسية والفوضى والتدخل الأجنبي؟ هل تمسَّكوا بمبادئهم الأخلاقية العامة وميثاق شرفهم ودافعوا عن حقوق الفئات المعدومة وقاوموا استبداد ومظالم الحكَّام المستبدين، أم توقَّفوا إلى جانب الحكَّام والطبقات المسيطرة وبادروا في مساندة الظالمين والمتغلبين؟ وهناك بكل تأكيد تباينات في أفكار ونشاط الفتيان من منطقة إلى أخرى في الفترة التاريخية المذكورة.

وصعوبة البحث في مسألة البنيان الاجتماعي للفتيان تنحصر أولاً: في المصطلحات الاجتماعية التي تحدِّد الأفكار والتقاليد السائدة بين الفتيان والتي بمرور الزمن يمكن أن تعبِّر عن مفاهيم متقلِّبة، أحياناً غامضة ومتوسعة، وأحياناً ضيِّقة وتقنية.

وثانياً: إن المصنَّفات التاريخية المتأخِّرة التي تنحدر من محيط الفتيان تحمل نزعة ايديولوجية لا تعكس واقع الأمور عند أهل الفتوّة والذهنيات والتقاليد المدنية في العصور الباكرة، بل تعطي صورة مثالية للفتيان القدماء وتعكس النزعة العامة للعصر الإسلامي الوسيط وهي رؤية الماضي بألوان بنفسجية.

ثالثاً: إن الأخبار النادرة والوحيدة عن المظاهر الاجتماعية لحركة أهل الفتوّة في العصر الإسلامي الباكر تأتي في مصنَّفات المؤلِّفين المرتبطين بالمحيط الأرستقراطي أو

الطبقات العليا والذين لا ينسبون للفتيان بواعث ايديولوجية، بل يصفونهم بنوع من الاستياء والازدراء والهلع كقطاع طرق، أو «أهل الشغب»، أهل الشر، «أصحاب الفتن»، على الرغم من أن المؤرِّخين المنتسبين غالباً إلى عداد أغنياء المدن لا يشيرون صراحة إلى أهداف الفتيان وتنظيماتهم وآرائهم حول العديد من المسائل الاجتماعية، إلاَّ أنه يمكن التكهُّن بذلك من روايات معارضيهم الفكريين ومواقفهم من الفئات الاجتماعية الأخرى. ويمكن الافتراض بأن أفكارهم قد لاقت انتشاراً بين بعض الفئات الاجتماعية الشعبية، إذا أخذنا بعين الاعتبار بأن الإسلام دعا إلى العدالة الاجتماعية وندَّد بأصحاب الثروة لانغماسهم بالتجارة التي ألهتهم عن العبادة. والأهم من ذلك فقد انبثقت من الدعوة الإسلامية والنصوص القرآنية والأحاديث تطلُّعات نحو العدالة الاجتماعية والشعور الجماعي القائم على مساواة المؤمنين كافة أمام الله وعلى تضامنهم، ولعل هذا أحد المطالب المثالية. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أولى واجبات الخليفة والإمام، وقامت الحسبة، ضابطة الأسواق والأخلاق تمارس رسمياً سلطتها. وبرز خلال التاريخ الإسلامي العدد الكبير من «المصلحين» الذين باشروا «دفع السوء» و«قضاء المظالم» بأساليب مختلفة. وقد حثَّ القرآن الكريم على الاستقامة والأمانة في المعاملات ومراعاة جميع مبادىء الأخلاق الاجتماعية والفردية وشدَّد على أولئك الذين لا يتقيَّدون بهذا الأمر.

والهدف الذي نرمي إليه إذن هو الكشف عن مقوِّمات روح أهل الفتوّة ومعالجة هذا الموضوع بشكل شامل وإبراز تطوُّر الفتوّة بين الشعوب والأقوام غير العربية والتي اتخذت الإسلام ديناً واندمجت في المجتمع الإسلامي.

ولنا الأمل أن يعكس هذا الكتاب إحدى نواحي دراسة التراث الإسلامي ويكون فيه ما ينفع القارىء العربي من حيث البحث العلمي في التاريخ وإدراك الحقائق ونرجو أن ينال من الرضى والتقدير ويحفِّز الكثير من الباحثين إلى الالتفات إليه.

ألكساندر خاتشاتريان

أول حزيران ١٩٩٧، معهد الاستشراق
التابع لأكاديمية العلوم القومية في أرمينيا

مقدمة

اجتذبت دراسة العلاقات الاجتماعية في المجتمع الإسلامي الوسيط اهتمام الباحثين والمستشرقين منذ مدة طويلة. وعلى الرغم من هذا الاهتمام القديم نحو قضايا العلاقات الاجتماعية وخاصة نحو نشأة التنظيمات الشعبية والفرق الإسلامية ولا سيما هيئات الفتوّة أو تنظيمات الفتيان بكافة أشكالها، إلاّ أن دراسة هذا الموضوع الهام مازالت بعيدة عن مرحلتها الختامية. فإحدى أسباب قلّة دراسة القضايا الاجتماعية في الحاضرات الإسلامية الوسيطة وخاصة قضايا نشأة تنظيمات «الفتوّة» أو هيئات الفتيان، وايديولوجية هذه التنظيمات وتركيبها الاجتماعي وتطورها السياسي هو افتقار وشحاحة معطيات المراجع والمصادر التاريخية.

لكن تراكم مواد المصادر التاريخية ومعطيات النقوش المثبوتة في السنوات الأخيرة تسمح لنا بإعادة النظر في تكوين هيئات «الفتوّة» وجماعات الفتيان الآنفة الذكر وإلقاء الضوء على نشاطها السياسي، وتركيبها الاجتماعي والديني، ومنطلقاتها الأخلاقية، ومبادئها الايديولوجية، وتطورها التاريخي، وأسباب انحلالها.

يقصد هذا الكتاب إلقاء الضوء على قضية نشاط هيئات الفتيان التي ظهرت تحت أسماء مختلفة، وعبرت غالباً عن مصالح الفئات الشعبية المعدومة في المجتمع الإسلامي، وتمسَّكت بمبادىء «الفتوّة» الأخلاقية واتخذت مُثُلها نبراساً لها في نشاطها الاجتماعي والسياسي كميثاق شرف، حيث ضمَّ مجموعة من المعتقدات الدينية والدنيوية والذي أصبح أساساً لايديولوجيتها.

كانت هيئات الفتيان تشبه «الأصناف الاجتماعية»، أحياناً منغلقة عن الأوساط الاجتماعية، وأحياناً ذات حدود مرجرجة وغير واضحة. وعلاوة على ذلك فإن تاريخ ظهورها، لا يستطيع أن نثبته بدقة، [ولكنها أصبحت عاملاً هاماً في الحياة السياسية حيث اختلفت آراء رواة الأخبار والمؤرِّخين عن نشاطهم واقتناعاتهم وأهدافهم].

يظن بعض الباحثين والأخصائيين بالعلاقات الاجتماعية في مدن المشرق الإسلامي بأن المجتمع الإسلامي افتقر إلى تنظيمات شعبية أو بالأحرى إلى منظمات مدنية ذات نشاط سياسي فعَّال. وكانت الفئات الشعبية المدنية جمهوراً غير منتظم وغير متبلور سياسياً. ومن أبرز الآراء في هذا المجال رأي الباحث «لابيدوس» الذي يعتقد بأن تجمعات المدنيين دينية كانت أم حرفية لم يكن لها قوة قادرة للتأثير على سياق الحياة

الاجتماعية والسيطرة على مجرى الأمور حيثما لم يكن لديها لا وسائل ولا قوة مسلّحة[١]. لكن دراسة أخبار الرواة والمؤرّخين وإشارات النقوش الكتابية تبرز انتشار بعض التنظيمات الشعبية المدنية ذات النشاط السياسي الفعّال في المدن الإسلامية. وقد اكتسبت هذه التنظيمات في العصور الوسطى وجوهاً مختلفة ولكنّها ظلّت مرتبطة فيما بينها بميثاق شرف أو نظام أخلاقي يحمل اسم «الفتوّة».

ومهما اختلفت تسميات هذه التنظيمات الشعبية فإن قيامها كان جواباً على الفراغ السياسي الذي حدث في مدن المشرق الإسلامي، مما دفع أعضاءها لإنشاء هيئات «الفتوّة» لأغراض الدفاع وحفظ الأمن وخاصة في أوقات البلبلة السياسية والفوضى وتدخل العنصر الأجنبي، وازداد نشاطها في ظروف تدهور الوضع السياسي، وتبدُّل الحكّام السريع، وضعف السلطة المحلية. وأصبحت عاملاً هاماً في الحياة السياسية ولا سيما أيام الحكم التركي المغولي. ومثلت المعارضة الشعبية الديمقراطية الفعّالة ضد التدخل الأجنبي وظلم الحكّام المستبدّين والسلطة المركزية. وكان أعضاء هذه التنظيمات يدافعون عن مصالح بلدهم ومبادئهم الدنيوية ومصالح الفئات المعدومة والعدالة الاجتماعية. وخلاصة القول فإن هذه التنظيمات الشعبية اعتبرت من أهم عناصر الاستقلال المدني ولعبت دوراً هاماً في حياة المجتمع الإسلامي[٢].

---

(١) J.M. Lapidus, Muslim cities and Islamic societies. in: «Middle Eastern Cities». A symposium on ancient islamic and contemporary Middle Eastern Urbanism. Ed by J.M. Lapidus, Berkely- Los Angeles, 1969, p. 50.

(٢) C. Cahen, Mouvements Populaires et autonomism urbain dans l'Asie Musulmane du moyen age, II.- «Arabica», T. VI, fasc. 1, 1959, p. 55,

كلود كاهن، «الأحداث». ـ دائرة المعارف الإسلامية، المجلّد الثاني، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

الفصل الأول

أهل «الفتوّة» في العصر الجاهلي

إن جذور القواعد الأخلاقية للفتوّة تتغلغل في الروح الجاهلية ومكنونات الطبع البدوية، عندما تطورت في وعي المجتمع الجاهلي الثقافي والتاريخي صورة المُثُل العليا للفتى العربي، وتجسَّدت في طائفة من الفضائل الحميدة والعناصر الأخلاقية كمزايا فردية تزيِّن الشاب الذي لم يبلغ سن الرشد والكمال خلافاً لمفهوم «المروءة» ـ شمائل الرجل العربي البالغ سن الكمال من الفروسية والرجولة وإلخ[1] ـ.

وقد انعكست في الروايات التاريخية والأساطير والأمثال وخاصة في الشعر العربي مميزات الروح العربية الجاهلية من عصبيَّة وحميَّة نهضت بعقلية البدوي تارة إلى الفضيلة، وهبطت به تارة إلى الرذيلة، وانكشفت فيه بواطن الخلق العربي من أعمال البطولة الفردية والفروسية التي كان يبديها زعماء القبائل المتخاصمة بسبب النزاع على الماشية والمراعي والمياه. وكان حب القتال فيهم داءً متأصلاً مزمناً. وأصبح الثأر من أقوى الأنظمة الدينية الاجتماعية في حياة البدو[2].

ويكشف الشعر الجاهلي عن المثل الأعلى لفضيلة العربي التي تعبِّر عنها لفظتا العرض والمروءة. وللمروءة عناصر أخلاقية تتكوَّن منها هي الشجاعة والوفاء والكرم والحلم وإلخ. فالشجاعة تقاس بعدد ما يقوم به البطل من الغزوات ومقدار بلائه في الذبِّ عن قبيلته ونُبْلِهِ في معاملة الأعداء. والوفاء يقاس بولاء الفرد لسيِّد العشيرة وبتفانيه وتضحيته في معاشرة الأنداد والقرناء. ويظهر الكرم في البدوي حين يبدي استعداده لنحر ناقته وتقديمها طعاماً للضيف ولإطعام الفقراء والمساكين. وقد تجسَّدت في شخصية حاتم الطائي المُثل العليا للضيافة البدوية وفي شخصية عنترة بن شدَّاد العبسي الشاعر

---

(١) تاريخ العرب بقلم فيليب حتِّي، ادوارد جرجي وجبرائيل جبور، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة السابعة، بيروت، ١٩٨٦؛ لاحقاً: فيليب حتِّي، تاريخ العرب، ص ١٤٠.

(٢) فيليب حتِّي، نفس المصدر، ص ١٣٠. للمزيد من التفاصيل عن إشارات الشعر الجاهلي عن الفتوّة انظر: عمر الدسوقي، الفتوّة عند العرب أو أحاديث الفروسية والمثل العليا، القاهرة، ١٩٥٩، لاحقاً: الدسوقي، الفتوّة عند العرب، ص ١١ ـ ١٢١.

والفارس المحارب نموذجاً للبطولة والفروسية وشمائل الرجولة عند العرب[١].

وقد أشار المستشرق جولدتسيهير في دراسته أن المروءة عند أهل الجاهلية كانت تقابل الدين في الإسلام، ثم قامت مقام مبدأ معنوي تدور عليه الأخلاق الكريمة من حيث أنها كانت تجمع بين السخاء والوفاء وحفظ الجوار والأخذ بالثأر وإلخ[٢]. وحسب نظرية جولدتسيهير يوجد تباين قاطع بين الأسس الروحية والخلقية لحياة العرب الجاهلية وبين أُسُس الدين الإسلامي المماثلة. رغم أن المستشرق أقام دلائل من أقوال معاصري النبي محمد لإثبات وجهة نظره عن الثغرة الواسعة بين المفاهيم الروحية والخلقية للجاهلية الوثنية والمفاهيم المماثلة في الإسلام[٣]، لكنه لم يستطع برهنة نظريته بشكل مقنع وواضح. علماً أنه لم يرفض المبدأ أو القاعدة المعروفة بالمروءة والتي لعبت دوراً هاماً ليس في العصر الجاهلي فقط، بل حتى في العصر الإسلامي. وماثل الباحث مفهوم «المروءة» العربي (من كلمة مرء = رجل) مع الكلمة اللاتينية Virtus وفسَّرها كفضيلة. وقد رفض الباحث المصري بشر فارس في دراساته نظرية جولدتسيهير عن التباين بين المروءة كفضيلة والدين بمعنى الدين الإسلامي معتمداً على أخبار الشعراء الجاهليين والشعر الإسلامي الباكر وتقليد العلماء المسلمين (السُنَّة)، وأشار بأن المروءة تضمن واجبات خلقية مختلفة الأشكال ومأثورة من حين لآخر في الشعر العربي الباكر. وأضاف الباحث بأن كلمة المروءة لم تستعمل لوصف أفعال أو سلوك الشخص التي هي فعلاً أصلية وفي المقام الأول، ولم تحمل مضموناً معنوياً أو روحياً أياً كان، بل تشير إلى «الشروط المادية للحياة» في الفترة المصادفة للعصر الإسلامي فقط والمروءة لا تعني «الفضيلة» (Virtus) القائمة في العصر الباكر (الوثني والإسلامي الباكر)[٤].

---

(١) لقد تحدَّرت إلينا من عصر البطولة والفروسية أو العصر الجاهلي طائفة كبيرة من الشعر العربي التي جمعت ودوّنت في أيام الإسلام المتأخرة؛ راجع: فيليب حتّي، تاريخ العرب، ص ١٣٤، ١٤٠ ـ ١٤١.

(٢) I. Goldziher, «Muruwwa und Din». - Muhammedanisihe Studien, bd. I, Halle, 1888, S.1-39

(٣) Goldziher, Muruwwa und Din, p. 13 - 14.

(٤) Bıchr Fares, L'honneur chez les Arabes avant l'Islam (Thèse), Paris 1932, p. 30· «Muru'a», Supplement of the Encyclopedia of Islam, (1938) col 157, نفس المؤلف: بشر فارس، مباحث عربية، القاهرة، ١٩٣٠، ص ٧٢.

وتطرَّق المستشرق برافمان في دراساته[1] إلى موضوع «المروءة والدين» أيضاً وأيَّد معارضة بشر فارس لنظرية جولدتسيهير بعد مراجعة بيوت شعرية من العصر الجاهلي والإسلامي الباكر، وأشار بأن المروءة فعلاً موجودة بمعنى «الشروط أو الأحوال المادية للحياة» (مثلاً: جئتك لتُعينَني على مروءتي) وهي مثل أي مفهوم آخر ذي طبيعة معنوية ـ روحية ومرتبطة من حين لآخر مع أفكار ذات طبيعة مادية معيَّنة. ولكن هذا التقدير حسب رأيه، لا يقلِّل بأية طريقة من أهمية المروءة المعنوية والروحية.

وفي الواقع لا يوجد فرق جلي بين المروءة الجاهلية «كاستحسان أصلي» والمروءة الإسلامية، وترمز العبارة السائدة «لا دين بلا مروءة» إلى الفضائل والأخلاق الرجولية للعصر الجاهلي التي لم تفقد قيمتها، بل أفردت لها مكانة هامة حتى في العصر الإسلامي، واكتسبت مزايا الخلق الديني الطاهرة وغدت إحدى المُثُل الرئيسية العليا للدين الإسلامي[2]. ويعتبر فالتزر وگيب «المروءة» وعياً دنيوياً معيناً لم تخمدها الأخلاقيات الدينية. فالقيم الأخلاقية الوثنية (الجاهلية) لم تنسَ بعد ظهور الإسلام، بل دخلت كعنصر مركَّب في القيم الخلقية الإسلامية التي ظهرت في اكتمالها مزاجاً طريفاً، موفقاً بصفة عامة، لتقاليد العرب في الجاهلية (السُنَّة) وتعاليم القرآن وعناصر غير عربية ترجع في جوهرها إلى أصول فارسية ويونانية دخلت في التكوين الإسلامي العام أو اندمجت فيه[3]. وقد تبدَّت في الأدب العربي ضروب من الأخلاق والأنماط المتعددة المستقاة من مصادر مختلفة على تعاقب العصور من عصر الشعراء الجاهليين وحتى القرن الحادي عشر الميلادي، وتعايشت مدة طويلة على تفاوت في ذلك. ولمَّا ظهر الإسلام لم تنقرض بحال قيم السنة القبلية لعرب الجاهلية التي تقوم على المعاملات والعادة. ومنذ أن أصبح الأدب الجاهلي آخر الأمر جزءاً من الآداب العربية الرفيعة لم تنسَ كل النسيان قط القيم الخلقية التي عبَّر عنها: وهي العِرض والحماسة والروح القبلية وإكرام الضيف والصبر والحلم والمروءة. ومن البيِّن أن دعوة النبي محمد قد أحدثت كذلك تغييراً أساسياً في القيم الخلقية التي أصبحت تقوم على ما دعا إليه الدين الجديد وعلى خشية الله والخوف من يوم الحساب، فالشفقة والعدل والرحمة والرأفة والسماحة والحلم

---

(١) M M. Bravmann, The spiritual Background of Early Islam and the History of its principal concepts, Leiden, 1972, p.p. 1 -7.

(٢) Bravmann, the Spiritual Background, p. 1 - 2.

(٣) فالتزر ـ گيب، «الأخلاق» ـ دائرة المعارف الإسلامية، المجلَّد الثاني، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٤٤١.